٦٣

علاقة العرب بالأدب المقارن

د. عبد النبي اصطيف(*)

يرى بعض الباحثين العرب ممن عنوا بالتأريخ للأدب المقارن، أو للدرس المقارن للأدب في الوطن أن أديب إسحق وأحمد فارس الشدياق كانا «الفارسين المبكرين في مجال بدء التقرب من الأدب الغربي، وبدء محاولة الموازنة بين الأدبين العربي والغربي»(١)، وأن سليمان البستاني في مقدمته لترجمة الإلياذة (التي استغرقته نحواً من ثماني سنوات، تلتها ثماني سنوات أخرى أمضاها في شرحها والتعليق عليها والموازنة بين مواقفها وبين الشعر العربي)

(*) د. عبد النبي اصطيف: أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث في جامعة دمشق، صدر له مؤخراً كتاب «نقد ثقافي أم نقد أدبي؟» (بالاشتراك مع د. عبد الله الغذامي)، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤م.

- العمل الفني: الفنان علي مقوص.

كان أحد روّاد التفكير المقارني بإشاراته المستمرة إلى وجوه الشبه بين الشعرين العربي واليوناني دون الدخول في متاهات البحث عن التأثير المتبادل بينهما، وأن روحي الخالدي كان رائد البحث المقارن التطبيقي في كتابه الصوّة: **تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو**(الذي صدر مقالات متسلسلة في مجلة **الهلال** القاهرية بين عامي ١٩٠٢ - ١٩٠٣، ثم أعيد نشره في مجلد عام ١٩١٢م)، والذي مضى على ظهوره نحو من قرن.

أما الريادة النظرية في الدرس المقارن للأدب فيعيدها الدكتور حسام الخطيب إلى خليل الهنداوي الذي كان أول من استخدم المصطلح عندما تحدث في مجلة **الرسالة** القاهرية عن «اشتغال العرب بالأدب المقارن أو ما يدعوه الفرنجة «Litterature Comparee» في كتاب **تلخيص كتاب أرسطو في الشعر** لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد «وكان ذلك في سلسلة مقالات نشرها في الرسالة بدءاً من ١٩٣٦/٦/٨.[٢]

❖ ❖ ❖

أوهام عربية

ومعنى هذا أن نحواً من قرن أو يزيد قد مرّ على بدايات الممارسات العربية التطبيقية في الأدب المقارن، وأن نحواً من سبعة عقود قد مضت على دخول مصطلح الأدب المقارن (من اللغة الفرنسية أولاً) إلى العربية الحديثة. ومع ذلك فإن المعاصرين لا يزالون يعيشون أوهاماً عديدة عن هذا الحقل المعرفي الوافد إلى الثقافة العربية الحديثة، والذي آن له أن يجد في الوطن العربي ملاذاً آمناً ووطناً ملهماً في ضوء التجربة الفريدة للأدب العربي في التفاعل مع آداب العالم شرقيها وغربيها، شماليها وجنوبيها؛ قديمها ووسيطها وحديثها.

وأول: هذه الأوهام العربية يتصل بالمصطلح نفسه. فمصطلح «**الأدب المقارن**» في اللغة العربية الحديثة **ليس غير ترجمة حرفية للمصطلح الفرنسي** lit-terature comparee، **والمصطلح الإنكليزي** literature comparative، ولكن العرب المحدثين بسبب عدم تنبههم إلى دلالة كلمة «أدب» في الثقافتين الفرنسية والإنكليزية توهموا أن «الأدب المقارن ليس غير «موضوع» Subject يدرس مثله في ذلك مثل أي أدب قومي. وكل ما في الأمر أن دارس الأدب القومي يدرس أدباً واحداً، في حين يعنى دارس الأدب المقارن بأدبين أو أكثر. ومعنى هذا أن الأدب المقارن، كما يفهمه المصابون بهذا الوهم، يعنى بموضوعات محددة يتناولها في أكثر من أدب قومي، وأن هناك عناوين

ومفردات تدخل في مضماره يكفي الباحث أن يدرسها حتى يصيح من باحثي الأدب المقارن، ويعنون أبحاثه على نحو يشي بتخصصه المزعوم فيه.

ولو أن المقارنين العرب المحدثين دقّقوا في دلالة كلمة «**أدب**» في الثقافة الفرنسية لتبينوا أن الكلمة كانت تعني «**الدراسة الأدبية**»، وأن هذا المعنى قد ظل ملازماً لها حتى العقود الأولى من القرن التاسع عشر عندما بدأ شيوع مصطلح «الأدب المقارن» في فرنسة على يد آبل - فرانسوا فيلمان Abel - Francois Villemain إثر نجاح المساق الذي درسه في السوربون في أواخر العشرينات من القرن الماضي نجاحاً منقطع النظير حفزه على نشر مادته في أربعة أجزاء تحت عنوان «**صورة الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر**». ومعنى هذا أن مصطلح «**الأدب المقارن**» في الثقافة الفرنسية، عندما استعمل للمرة الأولى في اللغة الفرنسية، إنما استعمل للإشارة إلى «**دراسة الأدب دراسة مقارنة**»، أو «**الدراسة المقارنة للأدب**».

وهو المعنى نفسه الذي كان يفهمه الإنكليز من كلمة «**أدب**» †Literatureفي

لغتهم. ذلك أن الكلمة كانت تعني في الإنكليزية حتى أواخر القرن الثامن عشر «دراسة الأدب»، أي أن الإنكليز كانوا يقصدون بمصطلح «**الأدب المقارن**» «عندما استعملوه في ذلك الوقت «**الدراسة المقارنة للأدب**»، أو **دراسة الأدب دراسة مقارنة**»[٣]. وبالتالي فإن مصطلح «**الأدب المقارن**» في الثقافتين الفرنسية والأنكلو - أمريكية اللتين نقل العرب عنهما المصطلح أو، على نحو أكثر دقة، ترجموه ترجمة حرفية، ليس موضوعاً، بل هو طريقة، ومنهج، ومقاربة، في دراسة الأدب القومي يأخذ بالحسبان صلاته الخارجية وما تتركه من أثر فيه، أو بعبارة أخرى، منهج يتلمس حضور الآخر "The Other" في هذا الأدب.

وثاني: هذه الأوهام يتصل بمنزلة «الأدب المقارن» في أقسام دراسة الأدب العربي والآداب القومية الأخرى. فقد وهم بعض العرب المحدثين أن دراسة هذا «الموضوع» أرقى بكثير من دراسة الأدب القومي، وأن العمل فيه: تدريساً وكتابة وتأليفاً وألقاباً تضاف إلى الاسم، يكسب صاحبه أهمية إضافية، وأن على المرء لذلك أن يسعى بشتى السبل إلى الدخول إلى ميدانه، وإضفاء مسحة مقارنة على كل ما يقوم به من أبحاث، وكان من نتيجة ذلك تسرب أعداد كبيرة من الباحثين إلى هذا الاختصاص دون التأهيل المطلوب، حتى إن بعضهم لا يكاد يعرف لغة أجنبية واحدة توسع أفق منظوره، وتراه بعد ذلك يدرس ويؤلف وينظّر في هذا الحقل المعرفي بثقة يحسد عليها، وقد نجح هؤلاء الباحثون في إعطاء انطباع غدا واسع الانتشار هذه الأيام هو أن الأدب المقارن «موضوع» سهل ميسر لجميع دارسي الأدب، ولا يجوز احتكاره من قبل المختصين وكأنه من موضوعات «فيزياء الذرة»؛ وهكذا كثرت التآليف النظرية والتطبيقية في الثقافة العربية الحديثة والتي يزعم أصحابها أنها تنتمي إلى الأدب المقارن، وبات عدد الكتب النظرية المؤلفة بالعربية يتجاوز أعدادها في أية لغة حية بما فيها الإنكليزية والفرنسية، بل إن عدد هذه الكتب يتجاوز عدد الكتب النظرية التي وضعت في فرنسة وبريطانية والولايات المتحدة الأمريكية مجتمعة[٤]. وهو أمر دالّ على استسهال العرب لهذا المنعرج من منعرجات الدراسة الأدبية. وقد نسي هؤلاء فيما نسوا أن المعيار الأهم في البحث العلمي هو الإتقان، وأن قيمة كل امرئ ما يحسنه، وليس ما يدّعيه أو يزعمه لنفسه دون خبرة أو تأهيل.

وثالث: هذه الأوهام يتصل بمفهوم العرب عن هذا الحقل المعرفي الذي أخذَ ممارسوه الحديثو العهد بسحر كلمة «**مقارن**» فجعلوه أسيراً لما يفهمه العرب عادة من «**المقارنة**» التي تعني، فيما بدا

لهم، الوقوف على المشابهات والفروق، أو مظاهر الائتلاف والخلاف، بين أثرين أدبيين ينتميان إلى أدبين قوميين مختلفين. وهكذا وجدنا المتسربين إلى هذا الحقل المعرفي أو الموضوع يعانون من عقدة المشابهة يتلمسونها بين ما يدرسونه من نصوص الأدب العربي أو سواه وبين النصوص الأخرى التي تتيسر لهم في الغالب عن طريق الترجمة، وعندما يتوافر لهم قدر كاف من وجوه المشابهة يسارعون إلى الحكم بوجود صلة تأثر وتأثير بين النصين، ويبادرون إلى تحمّل معززاتها الخارجية، ويمضون بعدها إلى إطلاق الأحكام غير المسؤولة على قوة الآداب والثقافات القومية في التاريخ الإنساني، ثم إلى تفسير ما يقعون عليه من صلات بطريقة تبعث على الابتسام أحياناً، وعلى الأسى أحياناً كثيرة، نتيجة ما أزروا بهذا الحقل المعرفي عندما تمسكوا بهذا الوهم، وما حلّ به على أيديهم من ذل ومهانة. أما إذا لم تكف وجوه المشابهة وكانت دون وجوه الاختلاف بين الأثرين الأدبيين فتراهم يرفضون أي حكم بوجود صلة ما بينهما لعدم كفاية الأدلة.

ورابع: هذه الأوهام يتصل بالوهم السابق. وفحواه أن ثمة طرفين في أية علاقة مقارنية يدرسونها - طرفاً هو الأدب المؤثر والقوي والفاعل والمانح والخير وذو اليد العليا، وطرفاً آخر هو الأدب المتأثر والضعيف والمنفعل والآخر والمحتاج وصاحب اليد الدنيا. ولما كان من الأفضل لأي أدب قومي أن ينتمي إلى الطرف الأول، فقد مضى الباحثون العرب إلى بيان فضل الأداب العربي القديم والوسيط على الأداب الأخرى الشرقية والغربية، ورأوا في ذلك تعويضاً مسوغاً عما نحن فيه من ضعف وتبعية. وإذ أشفقوا على أنفسهم من عنصرية التمركز حول الذات فقد رأوا أن عليهم ألا يهملوا تأثير الآداب الأخرى في الأدب العربي. ولما كان جلّهم مصاباً بعقدة الخواجا فقد عمدوا إلى دراسة صلة الأدب العربي الحديث بالآداب الغربية المتقدمة لتأكيد ذواتهم بالتدليل على أن الأدب العربي الحديث ماض قدماً في الارتقاء بنفسه على معارج الحداثة وما بعد الحداثة، وأنه يصلح للمعالي التي بلغها الأدب الغربي المتقدم.

وخامس: هذه الأوهام ناجم عن لوازم عقدة المقارنة وما يرتبط بها من مقولتي التأثر والتأثير، وهو التمسك المسرف أيما إسراف بذيول ما بات يعرف بالمدرسة الفرنسية القديمة، والانصراف عما جدّ من تطورات مهمة، في داخل فرنسة وفي خارجها، إلى درجة إهمال المدارس الأخرى التي غدت منذ نهاية الحرب الكونية الثانية تنافس التوجه الفرنسي كالمدرسة

الأمريكية، والمدرسة السلافية، والمدرسة الاستقبالية، والمدرسة ما بعد الاستعمارية، وغيرها، والالتفات إليها من جانب بعضهم، ولكن على نحو فردي، وبعد ترك مسافة أمان أقلها عقدان من الزمان بين ما يجري في الوطن العربي وبين ما يجري في التقاليد الأدبية والنقدية الأخرى، مؤكدين بذلك التخلف الذي يعيشه الدرس المقارن في الثقافة العربية الحديثة. ولعل من المفارقة حقاً أنك ترى بعضهم يروِّج لهذه أو تلك من المدارس، ويطبق في الوقت ذاته، وعلى نحو حرفي، تعاليم بول فان تيغم وفرانسوا غويار وجان - ماري كاريه وغيرهم من رهبان المدرسة الفرنسية التقليدية بسبب من ريادتها، والرائد، فيما وهموا، لا يكذب أهله، فلا تثريب عليهم إذن إن تبعوه.

وسادس: هذه الأوهام هو التمسك بتلابيب «الآخر» "the other" والاقتداء به في الدراسات النظرية والتطبيقية المقارنة على نحو كامل ما دام العرب قد اهتدوا به بداية في معرفتهم لهذا الموضوع، وعدم الالتفات إلى تجربة الأدب العربي الطويلة والغنية والمتنوعة والفريدة في التفاعل مع الآداب الأخرى، ومحاولة الصدور عنها في تطوير منظور عربي ينطلق من طبيعة الأدب العربي وطبيعة صلاته بهذه الآداب. وغدت بذلك الممارسة العربية المقارنية محاكاة، بل تطبيقاً آلياً، وتقفياً مستمراً لجهود «الآخر» في الميادين النظرية والتطبيقية في الأدب المقارن، مما حرم هذا الحقل المعرفي من حصيلة تجربة الأدب العربي الفريدة في التفاعل مع الآداب الأخرى، والتي تَعِدُ، إذا ما أحسن فهمها وتدبرها، بالكثير مما يمكن أن يغني التفكير النظري والممارسات التطبيقية في الدرس المقارن للأدب في العالم كله. ولكن من يمكن أن يندب نفسه للقيام بهذه المهمة إن لم ينهض بها الباحثون العرب أنفسهم من المؤهلين حقاً وصدقاً في هذا الحقل المعرفي المهم، وقليل من هم.

وثمة أوهام أخرى تطبع الكثير من أعمال المتطفلين، وما أكثرهم، على هذا الحقل المعرفي المهم من العرب المحدثين، وتحول بين العرب والنهوض بمستوى ممارساتهم النظرية والتطبيقية فيه، والانتماء حقاً إلى عصرهم بهذه الممارسات، وقد تم الاكتفاء بأهمها لإلحاحها ووضوحها في ممارساتهم التي لا تنتمي إلى الدرس المقارن للأدب إلا بمقدار ما ينتمي من يكتفي بوضع ربطة العنق إلى المجتمع الغربي.

❖ ❖ ❖

أسس الدراسة المقارنة للأدب:

ومعنى هذا أن على العرب أن يتخلوا عن هذه الأوهام وينطلقوا في انشغالهم بالأدب المقارن من أسس منهجية تستلهم روح نظريات الدرس المقارن للأدب

والتجارب الأدبية والنقدية القومية المختلفة في هذا الدرس.

أما أول، هذه الأسس فهو أن الأدب المقارن ليس موضوعاً، بل هو طريقة مميزة في الدراسة الأدبية، ومنهج محدد في تدبّر النصوص الأدبية لا يصلح لها غيره، وهو بهذا المعنى أقرب إلى النقد منه إلى البحث، أي أن المقارن المتخصص ناقد أدبي بالدرجة الأولى يواجه نصاً أدبياً يسعى إلى دراسته دراسة شاملة تستوعب جميع وجوهه ومختلف مستوياته، بما في ذلك حضور «الآخر» فيه. والمقارن العربي إذ يمضي في توجهه هذا، فإنه يجاري في ذلك التحول الخطير في الدراسات المقارنة المعاصرة والذي تحدث عنه أبرز منظري الأدب المقارن في العالم من أمثال إيف شيفريل[٥] وإدوارد سعيد وغيرهما. فعلى سبيل المثال يكتب إدوارد سعيد في كتابه «**الثقافة والإمبريالية**» عن هذا **التحول في الأدب المقارن من أسلوب البحث إلى أسلوب النقد** فيقول:

«كان التراث الرئيسي لدراسات الأدب المقارن في أوروبا والولايات المتحدة، منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية بزمن طويل وحتى أوائل الـ ١٩٧٠ ات، خاضعاً بقوة لأسلوب من البحث يكاد يكون قد اختفى الآن. والسمة الرئيسة لهذا الأسلوب القديم هي أنه كان بالدرجة الأولى بحثاً، ولم يكن ما أصبحنا نسميه نقداً»[٦].

ولذلك فإنه ربما كان من الأولى استعمال مصطلحات من مثل «الدرس المقارن للأدب»، أو «المنهج المقارن في الدرس الأدبي» أو «الطريقة المقارنة في الدرس الأدبي»، وكلها أوفى بالدلالة الحقيقية لهذا الدرس من مصطلح «الأدب المقارن».

وثانيها، أن **«الأدب المقارن» ضرورة منهجية تمليها طبيعة الأدب القومي نفسه، وليس مجرد خيار متاح أمام الدارس المقارن. ومعنى هذا أن الدرس المقارن للأدب العربي ضرورة لازبة من الناحية المنهجية تمليها طبيعة الأدب العربي نفسه.** وحسب المرء أن يشير هنا إلى المعالم الكبرى في تاريخ هذا الأدب حتى يتبين أنه كان على تواصل مستمر مع آداب العالم الأخرى. فقد تفاعل الأدب العربي منذ أيامه الأولى مع الآداب الأخرى وكان تفاعله هذا يزداد مع مرور القرون اتساعاً وغنىً وتنوعاً، وكان أدبنا بدوره يزداد من خلال هذا التفاعل اغتناءً بتجارب الآداب الأخرى. والحقيقة أن تجربة هذا الأدب في التفاعل مع الآداب الأخرى تكاد تكون فريدة في تاريخ الآداب القومية العريقة. وربما كان من أبرز ما يميز هذه التجربة العراقة، والغنى، والتنوع، والامتداد المكاني الواسع.

فأما عراقة هذه التجربة فأمر تشهد عليه القرون الستة عشرة أو نحوها التي عاشها هذا الأدب في تفاعل متصل مع الآداب الأخرى بدءاً من العصر الجاهلي إلى يومنا هذا.

وأما غناها فيتمثل في حصيلتها التي لا تزال معيناً لا ينضب للباحثين ينظرون فيها ويعيدون النظر كل يوم تقريباً. وحسب المرء أن يشير إلى تفاعل مؤلفات من مثل (**كليلة ودمنة**)، و(**ألف ليلة وليلة**)، و(**حيّ بن يقظان**)، وغيرها من الأعمال السردية مع الإنتاج القصصي العالمي بمختلف أشكاله وألوانه عبر العصور وفي مختلف التقاليد الأدبية القومية. وإلى الانشغال المستمر بجوانب تفاعلها هذا من قبل الباحثين والدارسين من الوطن العربي وخارجه ليس في ميدان الأدب واللغة وحسب بل كذلك في عدد من المعارف الإنسانية الأخرى كالفلسفة والأساطير وعلم الاجتماع وعلم النفس والطب والعلوم وغيرها.

وأما تنوعها فإنه يتجلى بوضوح في آفاق هذا التفاعل الذي لا تحده الحدود. ذلك أن تفاعل الأدب العربي مع الآداب لم يقتصر على جنس أدبي واحد بل شمل الأجناس الأدبية التي عرفتها الإنسانية كلها، كما أنه لم يقتصر على أدب واحد أو مجموعة محدودة من الآداب بل شمل عدداً كبيراً من آداب الشرق والغرب، والشمال والجنوب، القديم منها والوسيط والحديث.

وأما امتدادها المكاني الواسع فإنه أمر لافت للنظر حقّاً لأن هذه التجربة لم تقتصر على العالم القديم والصلات الوثيقة التي كانت للأدب العربي مع آدابه في القارات الثلاثة: آسية وأوروبة، بل تعدته إلى العالم الحديث أيضاً: أمريكة الشمالية، والوسطى، والجنوبية، وأسترالية.

لقد تفاعل الأدب العربي منذ أيامه الأولى مع الآداب الأخرى وكان تفاعله هذا يزداد مع مرور القرون اتساعاً وغنىً وتنوعاً، وكان أدبنا بدوره يزداد من خلال هذا التفاعل اغتناءً بتجارب الآداب الأخرى. وهكذا وجدنا هذا الأدب يتفاعل في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام مع الأدب الأمهري، والأدب الفارسي، والأدب اليوناني، والأدب السرياني، والأدب اللاتيني. ثم ما تلبث دائرة تفاعله أن تتسع لتشمل في العصرين الأموي والعباسي الأدب الهندي، وآداب آسية الوسطى، والآداب اللاتينية الأوروبية (وخاصة في فسحتي الأندلس وصقلية)، والآداب الإفريقية التي شملها الفتح العربي الإسلامي، وامتدت إليها التجارة عبر الصحراء الكبرى بين شمالي القارة ووسطها وجنوبها، وآداب شعوب جنوبي

شرقي آسيا التي انتشر فيها الإسلام ولغة القرآن عن طريق التجار العرب الذين تألفوا قلوب تلك الشعوب بحسن معاملتهم وأمانتهم وطيب معشرهم فدخلوا في دين الله أفواجاً، والآداب الأمريكية في شمالي القارة ووسطها وجنوبها والتي هاجر إليها العرب بدءاً من القرن السابع عشر وربما قبله مع مكتشفي أمريكا الذين استعانوا في رحلاتهم الأولى بخبرات البحّارة العرب ومعرفتهم.

وعندما نصل في تتبعنا هذا لمسيرة تفاعل أدبنا العربي مع الآداب الأخرى إلى العصر الحديث نتبين أن الإحاطة بشبكة علاقاته مع الآداب الأخرى أمر مستحيل على باحث واحد فهي بحاجة إلى فريق كبير من الباحثين ولا سيما أن هذه الشبكة تكاد تضم الآن معظم آداب العالم بما في ذلك آداب الشرق الأقصى (اليابان وكوريا والصين) والأدب الأسترالي، وآداب إفريقية الجنوبية، فضلاً عن آداب العالمين القديم والجديد التي تقدّم ذكرها.

وربما كان من المؤسف حقاً أن هذه التجربة الفريدة في التفاعل ما بين الأدب العربي والآداب الأخرى لم تظفر بالعناية الجديرة بأهميتها، وبما يمكن أن تنطوي عليه من تضمنات منهجية بالنسبة لنظرية (الأدب المقارن) أو الدراسة المقارنة للأدب. بل وأكثر من هذا لقد انصرفت جهود المقارنين العرب وغيرهم من المقارنين المستعربين بالدرجة الأولى إلى دراسة تفاعل الأدب العربي مع آداب أوروبة الغربية وأمريكة الشمالية أو العالم المتقدم، ثم إلى دراسة تفاعله مع الآداب الإسلامية بدرجة أقل، أما العناية بتفاعله مع آداب أمريكة الوسطى والجنوبية فتكاد تقتصر على عدد محدود جداً من الدارسين، وأما قضية تفاعله مع آداب جنوبي شرقي آسية فأمر لا نكاد نفكر به، وأما علاقاته الشائكة والشائقة مع آداب إفريقية المختلفة فلا تزال تنتظر اهتمام الأوروبيين بله العرب من المقارنين، وأما الظفر بمسح عام لعلاقاته هذه ولو بنظر الطائر المحلق، أو برؤية القمر الصناعي فأمل متروك للأحفاد تحقيقه في ضوء أوضاع الباحث العربي المادية والمعنوية البائسة في المجتمعات العربية وفي ضوء أوضاع البحث العلمي الذي لا يدخل دائرة أولويات هذه المجتمعات حتى القادرة منها على تمويله أو القيام به.

وثالثها: متصل بالأساس الثاني وهو ضرورة الإفادة من تجربة الأدب العربي العريقة والغنية والمستمرة والممتدة الآفاق في تطوير طريقه لدراسة الأدب العربي دراسة مقارنة تغني نظريات الأدب المقارن في العالم وتعمقها، بدل البقاء عالة على «الآخرين» ومحاكاتهم وتقليدهم باستمرار. إن على المقارنين العرب أن يأخذوا بزمام المبادرة في الدراسات المقارنة ويسهموا في تطوير مناهج الدرس المقارن استناداً إلى تجربة أدبهم ذي التاريخ العريق في التفاعل مع آداب العالم الآخر. ويقدموا للعالم بذلك بعض ما يدينون به للآخر، وإذا كنا بحاجة إلى قاعدة مادية متطورة لمعاودة دورنا الحضاري في مختلف المعارف والعلوم المعاصرة، فإن معاودة هذا الدور في الأدب المقارن أمر يدخل في دائرة الممكن.

ورابعها: هو أن الدراسة المقارنة للأدب منهج دينامي مفتوح للتطور والتعبير المستمر لأنه مرتبط أساساً بالنصوص الأدبية التي لا تفتأ تتطور في مختلف الاتجاهات وعلى جميع المستويات. ومعنى هذا أن أي جمود في المنظور المقارن سيكون «عقب أخيل» بالنسبة للمسعى المقارني العربي. وغني عن البيان الإشارة إلى أن دائرة النصوص الأدبية، التي تحدد المنهج المقارن الأمثل لمقاربتها، دائرة واسعة تشمل نصوص الأدب العربي مثلما تشمل نصوص الآداب الأخرى، وتشمل النصوص الأدبية الموجودة بالفعل، مثلما تشمل النصوص الأدبية الممكنة بالقوة. وبهذا يتحول المنهج المقارن في الدراسة الأدبية إلى منهج طليعي يستشرف آفاق التطور الأدبي الممكنة وينبه عليها ويشير إلى سبلها، ولا يكتفي بمجرد موقع التابع في صلته بالأدب. إنه في الواقع يرتقي بنفسه إلى مرتبة المعارف النظرية الأخرى العلمية البحتة، والعلمية التطبيقية، والإنسانية عامة. صحيح أنه ينطلق من الأدب ونصوصه الموجودة فعلاً، ولكنه سرعان ما يقوده لاحقاً في طرق تطويره الممكنة والكامنة فيه بالقوة. فيكون بذلك محكوماً بالطموح الإنساني نحو الأفضل، هذا الطموح الذي هو محرك النشاط البشري، وحافز المسعى الإنساني الأكبر إلى التسامي بالإنسان وما ينتجه من معرفة وعلم وفن.

الحواشـــي:

١- انظر: الدكتور حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً، الطبعة الثانية (دار الفكر، دمشق ١٩٩٩)، ص(١٥٥).

٢- انظر: الدكتور حسام الخطيب، المرجع نفسه، ص ص(١٩٦- ٢١٤).

٣- انظر: عبد النبي اصطيف، «المنهج المقارن في الدراسة الأدبية»، نزوى (مسقط)، العدد الثاني عشر، أكتوبر ١٩٩٧، ص(٥٤).

وكذلك:

Rene Wellek

"The Name and Nature of Comparative Literature", in his:

Discriminations: Further Concepts of Criticism

(Yale University Press, New Haven and London,

١٩٧٠)، ١-٣٦.

٤- يشير الدكتور حسام الخطيب في الـ «بيليوغرافيا حولية للأدب العربي المقارن: أ - المؤلفات النظرية» التي ضمنها كتابه آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً، الطبعة الثانية (دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩)، إلى أكثر من ٥٠ مؤلفاً عربياً نظرياً ألفها المقارنون العرب حتى عام ١٩٩١؛ وقد أحصى الدكتور برهان أبو عسلي في عمل قيد النشر أكثر من مئة كتاب ألفت بالعربية حتى عام ٢٠٠٤، وانظر:

«بيبليوغرافيا الأدب المقارن في الوطن العربي» للدكتور برهان أبو عسلي، الملحقة بمقالته «الدراسات العربية المقارنة: واقعها وآفاقها»، قيد النشر، ٢٠٠٤.

٥- انظر:

Yves Chevrel,

Comparative Literature Tody: Methods & Perspectives,

Translated from the French by Farida Eizabeth Dahab

(The Thomas Jefferson University Press, Kirksville, Missouri,

١٩٩٥)، ل.١.

٦- انظر:

إدوارد سعيد،

الثقافة والإمبريالية،

نقله إلى العربية وقدم له كمال أبو ديب

(دار الآداب بيروت، ١٩٩٧)، ص ص (١١١ - ١١٢).

❖ ❖ ❖